تقرير الرحلة الاستطلاعية الإيرانيّة حول الثورة المهديّة في (السودان)1301هـ/1883 - 1884م

د. عليان الجالودي أستاذ التاريخ - جامعة آل البيت - المملكة الأردنية الهاشمية

د. عبد الكريم جرادات أستاذ اللغة الفارسية وآدابها - جامعة آل البيت – المملكة الأردنية الهاشمية

المستخلص:

أدّت سيطرة الاستعمار على الدول العربيّة والإسلاميّة واتباع سياسة العنف والنهب والتخريب والتجهيل وفرض الضرائب، إلى قيام ثورات هدفها التحرر والاستقلال، وقد يكون الاستعمار في السودان من نوع مختلف إذ اجتمعت دولتان تحكمتا بالسودان وباستغلال خيراتها، هما: بريطانيا، ومصر، وبدأ السودان يخسر كل ما لديه إلّا حسّه الديني الذي بقي قوياً متماسكاً، مما هيأ إلى قيام ثورة دينية بقيادة محمد أحمد المهدي وانضمام أهل السودان لها. اتجهت أنظار العالم إلى ثورة محمد بن أحمد المهدي (1843 - 1885م) يستطلعون أخبارها ويترقّبونها، وأبدت الحكومة الإيرانيّة في الحقبة القاجاريّة اهتمامًا كبيرًا بثورة المهدي؛ لأسباب دينية ودنيوية ولم تكتفي بما ينشر في الصحف لمعرفة أخبار المهدي، فسارعت بأمر من ملكها «ناصر الدين شاه» القاجاري (1848-1896م) بإرسال مبعوثها عام (1301هـ) في رحلة تجسّسية مهمّتها التثبت من دعوة المهدي ورفع تقرير عن العمليات العسكرية لجيشه، وتحقق ذلك بتمكن المبعوث من الوصول إلى أرض السودان ورفع تقريره لـ «ناصر الدين شاه» القاجاري.

الكلمات المفتاحية: السودان، الثورة المهدية، ناصر الدين شاه، الرحلة الاستطلاعية.

A Report on the Iranian Scouting Trip about the Mahdist Revolution in Sudan (1301HA/1883-1884AD)

Dr. Elian Al-Jaloudi, Professor of History

Dr. Abdulkareem Jaradat

Abstract:

The imperial control on Arab and Islamic nations and implementing the policies of violence, plundering, vandalism, anti-intellectualism and taxation led to revolutions for freedom and independence. Imperialism in Sudan could be different in the sense that two countries governed Sudan and invested its resources. The two countries were Britain and Egypt. Sudan started to lose everything except its religious spirit, which remained consolidated and powerful. This

paved the way for a religious revolution led by Mohammad Ahmad Al-Mahdi. All Sudanese people joined that revolution. The world's attention turned to the Mahdist Revolution (1885-1843) to scout about it and be ready for it. The Iranian government during the Qajar era was very interested in the Mahdist Revolution for religious and worldly reasons. The Qajar government did not depend only on what was published in newspapers about the Mahdi news. On issuing a royal decree by the Qajar King Naser al-Din Shah (1848-1896), the Qajar government quickly sent an envoy in 1301 A.H. to scout about and spy to write a report of the military operations of the Mahdi Army. That was what the envoy successfully did by writing that report to the Qajar King Naser al-Din Shah.

Keywords: Sudan; the Mahdist Revolution; the Qajar era; Naser al-Din Shah; scouting trip

المقدمة:

كان للإيرانيين قنوات تواصل مع العرب في آسيا وإفريقيا، ومن هذه القنوات إيفاد الحكام في إيران من يثقون بهم لتحقيق هدف يتصل بالدين أو الدنيا، ومن ذلك ما قام به «ناصر الدين شاه» القاجاري إذ أوفد أحد العاملين في سلكه الدبلوماسي إلى مصر والسودان للاطلاع عن كثب على مجريات الأحداث، وتقديم تقرير عن دعوة محمد أحمد بن عبد الله المعروف بمهدي السودان، أو إمام السودان المولود في عام (1843م) في جزيرة أب التابعة لمدينة دنقلة السودانية. وكان محمد أحمد قد بعث برسالة إلى أعيان السودان أخبرهم فيها بأنه المهدي المنتظر، وأعلن اعتراضه على الحكم الأنجلو مصري ورغبته في الثورة عليه والتخلص منه، وأصبحت شهرته عالمية لمقاومته الجيش الأنجلو-المصري.

نجح مبعوث «ناصر الدين شاه» القاجاري، ـرغم انعدام الأمن وبعد المسافة، بالوصول إلى السودان وتقديم تقريراً عن رحلته للشاه، تخلّله بعض الرسومات لقادة أجناد المهدي وخرائط عسكرية وجغرافية رسمها للمنطقة، ومن المؤسف أنّ اسم هذا الدبلوماسي الرحالة بقي مجهولًا ليومنا هذا، وكل ما نعرفه عنه أنّه أحد موظفي السلك الدبلوماسي القاجاري، عُين بعد استكمال مهمته من قبل الدولة القاجارية دبلوماسيًا في مدينتي المنيا وبني مزار في مصر، وتنبع أهميّة هذه الرحلة بأنها الرحلة الأولى التي تكتب في اللغة الفارسية عن السودان عامة وعن الثورة المهدية خاصة [1]. ويضم كتاب رحلة السودان [2] بالإضافة إلى تقرير موظف وزارة الخارجية الإيرانية حول ثورة المهدي، أربع مخطوطات أخرى، ليصبح عددها خمسة، وهي:

- الرحلة إلى مصر والسودان: ويتضمن مخطوطها تقريرًا عن الرحلة التي قام بها موظف وزارة الخارجية الإيرانية إلى مصر والسودان في زمن السلطان «ناصر الدين

شـاه». وهـي مخطوطـة فريـدة محفوظـة في مكتبـة « كاخ جلسـتان» في طهـران، وتتميـز بخـط واضـح، وكتـب عـلى الصفحـة الأولى منهـا بخـط نـاصر الديـن شـاه « تمـت ملاحظتـه كامـلا»، المخطـوط يحتـوي عـلى (18) صفحـة وكل صفحـة (19) سـطر مكتوبـة بخـط مؤلفهـا. يضـم المخطـوط بالإضافـة للتقريـر أربـع رسـومات وخريطـة مـن عمـل المؤلـف (3).

- رسـائل المهـدي: وتتضمـن أربـع رسـائل بعثهـا المهـدي إلى ولايـات السـودان وأمصارهـا باللغـة العربيـة يـشرح فيهـا مهدويتـه ويدعوهـم فيهـا لاتباعـه. حصـل عـلى الرسـائل المترجـم «محمـد إقبـال الدولـة الكاشـاني» عـن طريـق أحـد المقربـين مـن مأمـور مـصر في بنـدر بوشـهر، فنسـخها وأرسـلها لوزيـر الدولـة للشـؤون الخارجيـة الإيرانيـة، فقـام «عبـد المطلـب الكاشـاني» بترجمتهـا وتقديمهـا إلى «نـاصر الديـن شـاه» في الثالـث مـن شـهر جـمادى الآخـرة سـنة (1301 هـ). وذيـل ترجمتـه للرسـائل بهـذه العبـارة: « بالرغـم مـن عـدم توفـر الوسـائل وعـدم فـراغ البـال وتشـتت الأحـوال، قمـت بترجمـة هـذه الرسـائل امتثـالا للأمـر الأعـلى الشاهنشـاهي، روحـي وروح العالمـين فـداه وأطـال اللـه مـداه إلى يـوم نلقـاه»(4).
- جغرافيـا السـودان وأخبارهـا: ألـف هـذا المخطـوط عـام (1301هـ)، «مـيرزا محمـد حسـين أديـب ملقـب بفروغـي»، رئيـس دار الطباعـة الحكوميـة، وهـو مترجـم مـن اللغتـين العربيـة والفرنسـية، والموجـود مـن هـذا المخطـوط نسـخة واحـدة محفوظـة في مكتبـة مجلـس الأمـة الإيـراني، ويعـد هـذا المخطـوط نوعـاً مـن التأليـف والترجمـة. ويذكـر المؤلـف سـبب تأليـف هـذا المخطـوط هـو أنّ أنظـار السياسـيين والمحققـين متجهـة إلى السـودان، لمعرفـة أخبارهـا بعـد قيـام ثـورة المهـدي، ولا يمكـن لنـا فهـم الأحـداث هنـاك إن لم يكـن لدينـا اطـلاع عـلى جغرافيـة السـودان والولايـات التـي يحـارب فيهـا المهـدي الجيشـين الإنجليـزي والمـصري، لذلـك جـاء هـذا التأليـف [5].
- جغرافيـا السـودان والنوبـة والخرطـوم: تأليـف وترجمـة «أحمـد مدحـت أفنـدي» الـذي زار السـودان عـام (1271هـ) وتحريـر «مـيرزا محمـد القزوينـي» في شـهر جـمادى الأول عـام (1301 هـ)، ومضمـون هـذا المخطـوط قريـب مـن المخطـوط السـابق. المخطـوط (17) صفحـة وكل صفحـة (13) سـطر ومنـه نسـخة واحـدة محفوظـة في مكتبـة مجلـس الأمـة الإيـراني [6].
- رسـالة المهـدي: كتبهـا «حبيـب اللـه الكاشـاني» الإيـراني المقيـم في الإسـكندرية بأمـر مـن المقامـات العليـا في إيـران يطلبـون منـه تقريـراً عـن حقيقـة ظهـور المهـدي فقصـد السـودان ومكـث فيهـا سـنتين، وزار معظـم ولاياتهـا والتقـى بكبـار مشـايخها، وسـجل ملاحظاتـه حـول المهـدي وثورتـه.

ومـن المؤسـف أن المخطـوط ناقـص، بقـي منـه سـبع صفحـات كل صفحـة خمسـة عـشر سـطراً محفوظـاً في المكتبـة الوطنيـة الإيرانيـة [7].

لقـد قـام الباحثـان بترجمـة المخطـوط الأول والمتضمـن تقريـر الرحلـة الاسـتطلاعية التـي قـام

بهـا موظـف الخارجيـة الإيرانيـة بأمـر مـن «الشـاه نـاصر الديـن» القاجـاري عـام (1301هــ) إلى مـصر والسـودان، وذلـك لأهميـة هـذا المخطـوط الـذي يفـترض أن يكـون دقيقـا؛ لأنـه كتـب بأمـر مـن «نـاصر الديـن شـاه شـخصيا» وتـم الاطـلاع عليـه مـن قبلـه، وكان يترتـب عـلى هـذا التقريـر كثـيراً مـن الإجـراءات الرسـمية التـي يجـب أن تتخـذ، فـأي معلومـة مغلوطـة أو مقلوبـة أو نقـل حقيقـة ناقصـة أو مبالـغ فيهـا في هـذا التقريـر، سـتفضي لارتبـاك في سياسـة إيـران الخارجيـة، فمهمـة المبعـوث كانـت رسـمية وليـس رحلـة استكشـافية خاصـة، ويؤكـد ذلـك هـو بنفسـه حـين يقـول، بـأن:» الأشـخاص الذيـن ذكرتهـم في التقريـر رأيتهـم بـأم عينـي ورسـمتهم»، ويقـول أيضـاً: «كل مـا رأيتـه وسـمعته بالتواتـر أو المواجهـة معـروض في هـذه الوثيقـة».

لذلـك نجـد أن التقريـر جـاء رسـميا يصـف المهـدي وفتوحاتـه وعسـاكره ويخلـو مـن الإطنـاب والحشـو الأدبي وتسـجيل المغامـرات والمذكـرات الشـخصية للمبعـوث.

تأسيسًـا عـلى مـا سـبق يمكننـا عـدّ هـذا التقريـر وثيقـة رسـمية بوسـعها أن تفتـح أبوابًـا جديـدة للبحـث في ثـورة المهـدي خاصـة إذا مـا قورنـت مـع الوثائـق السـودانية والمصريـة والعثمانيـة والبريطانيـة.

أمـا عـن المـدة الزمنيـة التـي قضاهـا هـذا المبعـوث في السـودان لإتمـام مهمتـه فيسـتنتج مـن التقريـر بأنـه قـدم إليهـا بعـد (15 رمضـان عـام 1301 هــ) كـما يذكـر ذلـك في تقريـره: «وقبـل قدومـي أرض السـودان أشـيع في الخامـس عـشر مـن رمضـان سـنة (1301هــ) أنـه وصـل أمـرٌ مـن محمـد أحمـد إلى عثـمان دِقنَـة يأمـره فيـه بترحيـل قبيلـة بشـاري وإسـكانهم في منطقـة القصـير»، أي بعـد دعـوة المهـدي التـي انطلقـت في (ربيـع الثـاني 1298هــ) بثـلاث سـنوات وبعـد أن اشـتدت الأحـداث وكـثرت الفتوحـات. أمّـا تاريـخ مغادرتـه السـودان، فيقـول المبعـوث في تقريـره: «وقبـل عـودتي مـن المهمّـة في العـاشر مـن رمضـان انتـشرت أخبـار مفادهـا أن محمـد أحمـد قـد سـيّر محمـل الحـج المـصري في الثامـن والعشريـن مـن شـوال، ومـا مـن علـم لي بمـا حـدث بعـد ذلـك التاريـخ».

بنـاءً عـلى مـا ذكـر فـإن المـدّة التـي قضاهـا المبعـوث في السـودان هـي أقـل مـن سـنة، لينتقـل إلى مـكان عملـه الجديـد بـترأس القنصليـة الإيرانيـة في المنيـا وبنـي مـزار المصريتـين، وذلـك بنـاء عـلى تكليـف مـن القنصـل الإيـراني في القاهـرة.

ترجمة التقرير:

هذا تقرير حول ادعاء محمد أحمد المهدوية ورسومات لقادة جنده

حُرّرت بإشارة من حضرة المستطاب الأجل الأكرم الأفخم، الصدر الأعظم [8]

الرسـم المرفـق للشـيخ محمـد خليفـة[9] مـن أكـبر زعـماء القبائـل، ويأتمـر بأمـره (45000) مـن الجنـد أو يزيـدون، وقبـل مجـيء العبـد المأمـور إلى أرض السـودان، كان محمـد خليفـة قـد غـار عـلى مدينـة بربـر [10] وأعمـل فيهـا آلـة الحـرب والقتـل، وكان قـد سـيطر عـلى مدينـة أبي حمـد وحـاصَر مدينـة دُنْقُـلا، وشـيّد بعـضُ مـن عسـاكره حصنـاً منيعـاً في وادي حلفـا؛ لحفـظ الحـدود الفاصلـة بينهـم وبـين عسـاكر الإنجليـز، والبالـغ عددهـم آنـذاك (2000) جنـدي، ومعهـم العسـاكر المصريـين الذيـن ناهـز عددهـم (4000)، وحلفـا تبعـد عـن وادي أسـوان [12] فرسـخاً وهـي أول أرض الصعيـد.

بداية الحرب في ممالك السودان وأخبارها موثقة في هذا التقرير المرفوع إلى

جنابكم السامي:

يـراوح عـدد قاطنـي أرض السـودان عـدة ملايـين مـن الأنفس، وتقسـم إلى ثـلاث ممالـك: دارفور، وكردفـان، والخرطـوم التـي يعـيَّن حاكمهـا بمرسـوم مـن حكومـة خديـوي مصر.وبعـد أن تمكنـت مـصر بقيـادة جعفـر مظهـر باشـا [11] إثـر معـارك طاحنـة، مـن السـيطرة عـلى ممالـك السـودان برمتهـا، وإبـرام معاهـدة مـع حكومـة دارفـور وكردفـان نصـت عـلى تعهدهـما بدفـع ألـف قنطـار مـن ريـش النعـام وألـف قنطـار مـن سـن الفيـل (العـاج) [12] لحكومـة مـصر عـن طريـق حاكـم الخرطـوم، وكل قنطـار يسـاوي مَنّـا ونصـف المـنّ بالـوزن الإيـراني، وريـش النعـام وسـن الفيـل تشـتهر بهـما المـدن الصغـيرة الشرقيـة مـن مـدن النيـل الأبيـض، وموانـئ مصّـوع [13] وسـواكن [14]. وكان يعسـكر الجيـش المـصري في القصبـات الغربيـة التـي تسـمى النيـل الأحمـر (15) وذلـك للـضرورة ، وفي كل مـكان وفـق مـا تسـتدعيه الحاجـة. والنيـل الأبيـض يلتقـي مـع النيـل الأحمـر(الأزرق) في الخرطـوم ويسـمى بالنيـل المبـارك ثـم يتجـه إلى مـصر.

كان الزبـير باشـا وهـو مـن احـد زعـماء القبائـل في السـودان قـد عينتـه حكومـة الخديـوي إسـماعيل باشـا واليـا عـلى الخرطـوم[16]، بيـد أنـه خالـف حكومـة مـصر وتمـرد عليهـا مـما دفـع رؤوف باشـا لتسـيير حملـة عسـكرية بقيادتـه تضـم مشـاة وخيالـة ومدافـع إلى الخرطـوم، وبعـد أن شـاهد رؤوف باشـا أنّ خسـائره في تلـك الحـرب جسـيمة، ضاعـف جهـوده عـلى أسر الزبـير باشـا وتأمـين شرق الخرطـوم وغربهـا فتحقـق لـه ذلـك، وبعـد أسره للزبـير باشـا أرسـله مـع أهلـه وعيالـه وحاشـيته مأسـوراً مغلوبـاً مخـذولاً ومنكوبـاً إلى مـصر، ولم يبـق مـن عائلتـه إلّا ابنيـه الصغيريـن في قبيلتهـما[17]. وبعـد الفتنـة التـي أشـعلتها بريطانيـا وفرنسـا في مـصر بعزلهـم الخديـوي السـابق وتنصيـب خديـوي جديـد بـدلاً منـه، سـعت الحكومـة البريطانيـة مسـتخدمة كل الحيـل وأسـاليب التزويـر لإرضـاء الحكومـة المصريـة بمنـح غـوردون وهـو أحـد المقربـين لرجـال الدولـة البريطانيـة لقـب الباشـوية مـع امتيـازات كاملـة، وابتعاثـه حاكـما إلى أرض السـودان محملـا بالمـال والمتـاع، وتـم ذلـك في شـهر شـوال(1296هـ). ومـن بـاب الاعتقـاد الشـائع عنـد أهـل مـصر والسـودان بوجـوب الخضـوع والانصيـاع للمشـايخ والأوليـاء، ممـن يوصـف بعضهـم بالفقـر إلى اللـه والقـدرة عـلى إتيـان الخـوارق، والبعـض الآخـر بالخلـق الحميـد والـرأي السـديد، ولمّـا كان محمـد أحمـد المدّعـي المهدويـة مـن المشـايخ وأصحـاب النفـوذ عـلى النـاس وعـلى مشـايخهم، ويمتـاز بصفـات اسـتثنائية فريـدة اكسـبته بريقًـا يفتقـر إليـه بقيـة المشـايخ، عمـل «غـوردون باشـا» عـلى لقائـه سرًا، وقـدّم لـه أمـوالاً طائلـة ومنحـه ثقـة مطلقـة ووعـوداً كثـيرة، وأرسـل لـه مـن مينـاء مصـوّع ألفـي بندقيـة مارتـين[18]. وقـد اتفـق محمـد أحمـد مـع «غـوردون باشـا» عـلى التّخلـص مـن أبنـاء الزبـير باشـا؛ لخشـيته منهـما، وقـد تـم لـه مـا أراد، إذ أمـر «غـوردون باشـا» بإعدامهـما شـنقاً.[19]. وتمكـنّ محمـد أحمـد في مـدة وجيـزة مـن جمـع مـا يقـارب الـ (500) إلى (600)(20) درويـش وخلافهـم كأنصـار لـه، وأذاع في أرجـاء السـودان أنّ حـضرة المهـدي عليـه السـلام قـد ظهـر.

اسـتطاع الأشـخاص الذيـن أطاعـوا محمـد أحمـد مـن كسـب أهـالي عبيـد[21] إلى جانبهـم، وحاصروا قصبـة عبيـد، وتلقفـت أسـماع المصريـين الخـبر أنّ المهـدي قـد ظهـر غـرب السـودان وقـد حـاصر مدينـة

عبيد، فقامت حكومة مصر على الفور بتعيين رؤوف باشا حاكماً على الخرطوم، بدلًا من «غوردون باشا»، والذي توجه إلى لندن بعد مثوله أمام الحكومة المصرية. وبالتزامن مع هذه الأحداث المتلاحقة التي تم بها عزل «غوردون باشا» وتعيين «رؤوف باشا» مكانه في الخرطوم، عمل محمد أحمد على قتل بعض العساكر المستقرة في عبيد، وأسر بعضهم، وانضم من تبقى منهم إليه، وسيطر على عبيد وأمر الناس بدفع مقدار العشر بوصفها ضريبة، وسمح ببيع وشراء الجواري والغلمان.

عمد رؤوف باشا بعد وصوله إلى الخرطوم إلى إخماد نار الفتنة بالحِلم والتأني، فأرسل (150) جندياً من الخيالة والمشاة إلى قصبة عبيد. وبعد وصولهم خطط أتباع المهدي لأسرهم، غير أنّهم عدلوا عن رأيهم وغاروا عليهم كالأسود الجائعة ومزقوهم بسيوفهم. وصل خبر قتلهم إلى الخرطوم، فتوجهه بعد شهرين من هذه الحادثة (600) جندي من الفرسان والمشاة إلى عبيد، فدخل (400) جندي منهم في طاعة المهدي وقُتل البقية. وصلت الأخبار للخرطوم، وتنبّه رؤوف باشا إلى أنّ قتل أبناء الزبير باشا أدّى إلى تعاطف قبيلة الزبير وغيرها من القبائل مع دعوة المهدي المرتكزة على رفع الظلم وإقامة العدل ورعاية المظلوم وأخذ العشر، لذلك فرّ أكثر من (6000) شخص من القبائل إلى محمد أحمد طائعين مخلصين. وصل عدد أتباع محمد أحمد إلى (15000) شخص، وشاعت أخباره في دارفور بالعدل ونصرة المظلوم، وتقاضي العشر، والسماح بتجارة الجواري والغلمان، ولما كان من أهل السودان من تنحصر تجارتهم ببيع الجواري والغلمان، مالت قلوبهم إليه واتبعته القبائل العربية راغبة طائعة سرًا في دارفور.

توجه الشيخ عثمان دِقنَة وهو من أكبر التجار المعروفين ورئيس قبيلته[22] على رأس (15000)[23] محارب قاصداً دارفور[24] بعد أن بعث برسالة لملكها[25]

وهذه صورة الشيخ عثمان دِقنَة [26] وهو من كبار تجار الجواري والغلمان، وأحد قادة محمد أحمد الأشاوس، وله جولات وصولات مع «هكس باشا»، وفي مدينة سنكات، ومع «بيكر باشا» [27] ومع الإنجليز، الذين قتل بعضهم وهزم بعضهم الآخر. وقد أرسل محمد أحمد برسالة إلى أهل دارفور وملكها يقول فيها: «إنّني أرسلت إليكم الأمير عثمان حاكما على دارفور وكل ما يقوله لكم عليكم إجابته بالسمع والطاعة، وعليكم دفع الضرائب حسب أحكام الشريعة الغراء، وأعلموا أنّ تجارتكم في بيع الجواري وشرائها باقية كما هي، وأحذركم من عصيان أمري، فلن أتهاون في حسابكم وعقابكم». وعندما ذاع الخبر تأهب ملك دارفور[28] للدفاع عن مملكته، وإزالة المحنة عنها، وبعد مرور شهرين تبيّن له أنّ أهل دارفور مؤيدون لمحمد أحمد في الخفاء؛ فأيقن بعدم قدرته على المقاومة ورجح الفرار إلى مصر، فدخل الشيخ عثمان دِقنَة إلى مملكة دارفور وسيطر عليها، واستولى على المدافع ومخازن أسلحتها. وصل خبر سقوط مملكة دارفور إلى الخرطوم ونقلته إلى مصر، فلم تبد اهتماما كبيرا لأحداث السودان، وذلك لتزامنها مع ثورة أحمد عرابي باشا الذي كان همّه محاربة الإنجليز؛ فزادت قوة محمد أحمد، واتسعت رقعة سيطرته، وتضاعف عدد أنصاره، إلى أن دخلت عساكر الإنجليز إلى مصر، وتشكل مجلسان أحدهما لبحث

أمور المنكوبين في أموالهم وأرواحهم في أحداث الإسكندرية، والآخر مجلس عسكري لمحاكمة قادة الثورة العرابية أساس هذه الفتنة والأفراد الذين أحرقوا الإسكندرية، وكذلك محاكمة كل متورّط في قتل الرهبان القساوسة في الإسكندرية بتاريخ الخامس والعشرين من رجب عام (1299هـ)، وجاء الحكم على النحو الآتي:

إبعاد أحمد عرابي باشا مع ستة من أعوانه إلى سيلان، وإعدام مجموعة من المتورطين، وإبعاد أكثر من (200) ضابط ومسئول أمني مصري إلى السودان.

استغرقت كل هذه الأحداث قرابة السنة، استفاد منها محمد أحمد في الاستيلاء على كردفان، وأصبحت شهرته الحربية تزداد يوما بعد يوم، مما دفع مصر إلى تدبّر الأمر حيال ذلك فأرسلت عبد القادر باشا وزير الحرب حاكمًا على الخرطوم، ولكنه ارتأى بأنّ هذه المهمة صعبة وخارجة عن قدرته، فبادر بتقديم استقالته فور وصوله الخرطوم. وسارعت الحكومة الإنجليزية، بعدما كثفت وجود قواتها في مصر، إلى إرسال الجنرال «هكس»، أحد القادة الإنجليز ويحمل لقب باشا، على رأس (12000) جندي مصري من الفرسان والمشاة إلى الخرطوم وَنُصّب حاكمًا مفوضًا عليها، ودخل «هكس باشا» الخرطوم بثقة عالية معتقدا أنّه سيقبض على محمد أحمد وينفيه إلى سيلان أو أي مكان آخر كما فعل مع أحمد عرابي باشا. ووصل خبر إبعاد أحمد عرابي باشا ورفاقه إلى سيلان أسماع محمد أحمد، فعقد مجلسًا على الفور حضره الشيخ عثمان دِقنَة والشيخ محمد خليفة والشيخ محمد عمران وهم من قادة محمد أحمد الكبار، وشاورهم في أمر الإبعاد والخطوات اللازمة التي يجب اتخاذها؛ لتجنب إبعادهم كما حدث مع عرابي ورفاقه، وبعد المشورة فيما بينهم قرأوا الفاتحة على نيّة نكث العهد الذي كان يجمعهم مع «غوردون باشا»[29].

أرسل الجنرال «هكس» رسالة إلى محمد أحمد بعد وصوله الخرطوم، وردّ محمد على رسالته بجواب قاس، يُظهر فيه إيمانه العميق هو وجيشه بالشريعة الغراء.

أبرق «هكس» برقية إلى الجنرال قنصل الإنجليز يخبره فيها بردّ محمد أحمد على رسالته، ويأخذ الإذن بتولي إبراهيم باشا حيدر حكم الخرطوم نيابة عنه والخروج برفقة علاء الدين باشا على رأس (12000) جندي إلى أطراف عبيد. وصل الخبر إلى محمد أحمد، فأمر قادة جنده بتسيير (30000) جندي يجتمعون تحت راية عثمان دِقنَة ويأتمرون بأمره؛ للتصدي لـ «هكس باشا» في المنطقة الواقعة بين سنّار والخرطوم.[30] وكان من ضمن المرشدين المحليين، الذين اتخذهم «هكس» لإرشاده في حملته، أقارب وتابعين لأحمد بن محمد المهدي، فاتجه على رأس قوة قوامها (8000) جندي لعبور طريقا تشق جَبلَيْن، بينما سلك علاء الدين باشا ومعه (4000) جندي طريق آخر يوصله إلى سنار.[31].

قام عثمان دِقنَة وجمعه الغفير بمفاجئة «هكس باشا» بالهجوم عليه ليلا، فحاول التحصن، غير أنّها كانت ليلة ليلاء، مُلئت سماؤها بأصوات المدافع والبنادق، وأنين الجرحى وعربدة الأبطال، وزغاريد نسوة السودان، فاختار «هكس باشا»، بعدما أيقن بضعفه أمام هذا السيل الجارف من المحاربين، الفرار مع الجند المصريين، فكانوا كشجر الصفصاف في ارتجاف أوراقه، يطاردهم

السودانيون كالأسود الغاضبة، التي تخلف وراءها رؤوسًا بلا أجساد وأجسادًا بلا رؤوس.

بيت شعر:

فرّ إلى الصحراء كالقنفذ، مهمَل الذقن مبَعثر الشعر.

وتمكن السودانيون بعد بزوغ الفجر بساعتين من قتل (12000) جندي مصري وأسر «هكس باشا» وقَتل علاء الدين باشا ومعه ثلاثون شخصًا من أصحاب المقامات عند الإنجليز. ولم ينجُ من قوام جيش «هكس» إلّا أربعة وعشرون جنديًا من بينهم جرحى، وتيمنًا بهذا النصر أصدر عثمان دِقنَة أمرًا بقطع «هكس باشا» بالمنشار إلى نصفين.

حين وصل خبر الفتح السوداني إلى محمد أحمد أرسل إلى عثمان دِقنَة، الملقب بالأمير أبي بكر، عساكر كثيرة، وأمره بالتوجه إلى سواكن ومعه (20000) من الجند، وكذلك أوعز لمحمد خليفة بالتوجه إلى الخرطوم وبربر وبصحبته (45000) جندي. وباشر عثمان دِقنَة تنفيذ المهمة الموكلة إليه، فأرسل (8000) جندي من المشاة بقيادة عمر أبو خلف (32) لمحاصرة سنّار، وأنطلق هو متوجها إلى سواكن. والرسم التشبيهي المرفق (33)هو لعمر أبو خلف كبير المشاة الذي حاصر سنكات بعد سنّار، وجميع مشاة جيش المهدي على هذه الهيئة أصحاب عضلات مفتولة وأذرع قوية، وكل قيادي عسكري منهم كان يعقد رباطًا على ذراعه، ورسمت هيئة العسكر وأدواتهم، فالكيس المعقود على خصرهم فيه طعامهم وهو العرعر الحار يشبه العدس المحدب الطرفين، ومن عاداتهم طلاء أجسادهم بالزيت مرتين باليوم. وما أن وصلت أخبار هزيمة «هكس» إلى سنكات وطوكر وترنكتات، حتى قام توفيق بيك وهو أحد القادة المصريين البارزين ومعه (400) من العسكر بتحصين سنكات، التي يحاصرها عثمان دِقنَة، وبعث برسول إلى سواكن يطلب المدد. وأحاطت سواكن الحكومة المصرية بالأمر، وأخبرتها بهزيمة «هكس باشا»، فتأهبت دولة الإنجليز وباشرت بحشد جيش كبير، ومن ضمن التدابير التي اتخذتها استدعاء «بيكر باشا» المطيع للإنجليز من إسطنبول ومعه (4000) جندي من الأتراك والإيرانيين والكرد ومن سويسرا والأناضول وبلاد الشام بالإضافة إلى عساكر السويد الموجودين أساسا في مصر لإرسالهم لنجدة توفيق بيك. وصل «بيكر باشا» إلى سواكن عن طريق البحر ومعه (4000) من الجند، واستغرق استعداده ووصوله ثلاثة أشهر نفدت فيها مؤن توفيق بيك وبقي من غير مدد، فعظم الخطر عليه، ولم يعد من خيار أمامه سوى الخروج من تحصنه، فخرج مع جنده الجوعى والعطشى مبادرا بالهجوم، وانتهت المعركة بمقتل عدد كبير من الطرفين ومقتل توفيق بيك وجميع من كانوا تحت إمرته، ولم ينس الإنجليز فضل شجاعة توفيق بيك فأوصت بإيلاء عناية خاصة بأولاده.

توجه «بيكر باشا» برفقة (4000) مقاتل إلى أطراف سنكات بعد وصوله أرض اليابسة من البحر، لنجدة توفيق بيك ولكنه بعد أن عبر من ترنكتات وصله خبر مقتل توفيق بيك، ووقف أمامه عثمان دِقنَة كالسد المنيع، وبعد ثلاث أو أربع جولات من الحرب ومقتل الكثير هزم عثمان دِقنَة «بيكر باشا» شر هزيمة وقتل ما يقارب من (2500) جندي وجرح أكثر من (300)، وهرب البقية برفقة «بيكر باشا» ودخلوا سواكن. وصل خبر الهزيمة إلى مصر ونقلته إلى لندن فجمعت

الأخيرة (6000) جندي بريطاني وثلاث آلاف جندي من مناطق متفرقة لدخول سواكن من كافة الجهات، وبقيادة الجنرال «جراهام» وجنرال البحرية «حُيوت»، وأبدى «غوردون باشا»، سبب هذه الفتنة، رغبته بالسفر من لندن إلى مصر للمشاركة في الحملة.

عندما وصل «غوردون باشا» إلى مصر وأطلع على مجريات الأحداث في السودان وما يرافقها من غليان واضطراب، طلب من الزبير باشا مرافقته، وبينما كان الزبير باشا يعدّ نفسه، فإذا بخبر يصل من لندن يرفض ذهابه.

انطلق «غوردون باشا» متجها إلى السودان عبر طريق الصعيد يرافقه ملك دارفور وزوجته، محملا بـ(200000) ليرة إنجليزية وسبعين وساما من الدرجة الأولى وحتى الخامسة، وعند عبوره الصعيد، وهي أول أرض السودان، وهب إلى قبيلة الدناقلة أموالاً طائلة وأوسمة عدة، وساروا برفقته حتى وصل إلى الخرطوم سالماً، وفي الخرطوم منح حسين وحسن وهما من زعماء الخرطوم الكبار وأوصياء على قبيلة الزبير باشا، منحهما لقب الباشوية ووسامين من الدرجة الثانية، وأحرق «غوردون باشا» كل الدفاتر الحكومية؛ كدليل على نيته في إعفاء الناس من دفع الضرائب المستحقة عليهم للديوان، وباشر بترميم أزقة الخرطوم وبناء أسواقها وأطرافها، وأصدر بيانا يخاطب فيه عامة أهل السودان، مضمونه» أن السودان ملك للسودانيين، ومحمد أحمد هو زعيم السودان وكبير أهلها، ولا مانع من بيع الجواري والغلمان وشرائهما.»

انتشر فحوى هذا البيان في أرجاء السودان عامة، فانعقد مجلسا جمع العرب والقبائل المتخوفة من الحكومة المصرية صاحبة الولاية عليهم، وقالوا فيه: «إن اتبعنا اليوم محمد أحمد فإن عساكره غدا ستستولي على مالنا وعيالنا»، بيد أنهم، وفي آخر الأمر، رجحوا الخضوع والانصياع لمحمد أحمد وإطاعته وعدم الخروج عن إمرته.

بعدها أرسل «غوردون باشا» إلى محمد أحمد خُلعة مرصعة بوسام، للتأكيد على دعمهم وحمايتهم له، وحُكمًا يفيد «بأن السودان كلها لك، وإن كانت تدار من قبل الإنجليز».

غير أنّ محمد أحمد لم يقبل الخلعة والوسام وردّهما لـ «غوردون باشا»، وأرسل معهما خرقة درويش كَتب عليها: «إن كنت تريد أن تأمن على نفسك منا، فعليك أن تُسلم، وتفتخر بارتداء الخرقة، وإلا سيكون مصيرك كمصير «هكس» من قبلك». وفي الوقت نفسه وصل محمد خليفة إلى الخرطوم ومعه (60000) من الجموع وحاصرها، فيخرج «غوردون باشا» ومعه (2000) جندي، فتصدى لهم (12000) من عساكر المهدي وألحقوا بهم الهزيمة، ودخلوا الخرطوم.

اعتقد «غوردون باشا» أن سبب هذه الهزيمة هما حسين باشا وحسن باشا، فأمر بتعليقهما على حبل المشنقة. وبعد شنقهما نفرت العرب والمشايخ من «غوردون باشا»، فتنبه لذلك وأودع القلعة والحواجز الدفاعية لحيدر باشا إبراهيم، وأتجه إلى إحدى الكنائس البارزة المحصنة المنيعة، وسلح الفين شخص من الروم والمسيحية ببنادق المارتين ليستقروا فيها، بينما بقيت الخرطوم تحت حصار محمد أحمد.

في هـذه الأثنـاء وصـل الجـنرال «جراهـام» والجـنرال «حيـوت» إلى سـواكن ومعهـم (16000) جنـدي، وانضمـوا إلى «بيكـر باشـا»، وأطلعهـم الأخـير عـلى التحـركات العسـكرية لمحمـد أحمـد وجنـده. وفي ظـل هـذا التطـورات انسـحب عثـمان دِقنَـة بجيشـه إلى محـاذاة المناطـق الجبليـة، وتوجهـت عسـاكر الإنجليـز إلى ناحيـة طوكـر، حيـث وقعـت المواجهـة بـين الطرفـين عـلى جولتـين، وهُـزم عثـمان دِقنَـة في كلا الجولتـين هزيمـة نكـراء، واسـتعاد الإنجليـز طوكـر مـن أيـدي عسـاكره.

بعـد يومـين مـن هـذه الأحـداث أرسـل محمـد أحمـد جمعًـا غفـيرا متأهبـين للحـرب لمسـاندة عثـمان دِقنَـة، والنسـوة مـن وراءهـم يزغـردن ويهلهلـن. والرسـم المرفـق (34) هـو للنسـاء المزغـردات المهلهـلات وقـت الحـرب، وهـنّ سـائرات خلـف أزواجهـن وإخوانهـن وأبنائهـن، ويحملـن معهـن نوعـين مـن الأسـلحة وإبريـق مـاء، فـإن كـسرت أسـلحة أزواجهـن كان المـدد حـاضرا بمـا بـين أيديهـن، وإن عطشـوا يروينهـم مـن مـاء الإبريـق، وبالزغاريـد يتشـجع المحاربـون ويـدب فيهـم الحـماس للقتـال. وتحالفـت القبائـل القاطنـة ناحيـة سـواكن مـع الإنجليـز عندمـا رأوا هزيمـة عثـمان دِقنَـة عـلى أيـدي الإنجليـز في الجولتـين، وتابـع عثـمان دِقنَـة ارسـال أعـداد مـن عسـاكره القديمـة والجديـدة إلى طريـق سـنكات، وأمرهـم بحفـر آبـار وحفـر عميقـة فيهـا، وسـترها بالـتراب. ووصـل الخـبر للإنجليـز بـأن عسـاكر عثـمان موجـودة في طريـق سـنكات، فتحركـت مـن طوكـر وكانـت المسـافة بـين القلعـة الأولى المتحصنـين فيهـا، والقلعـة الثانيـة تبلـغ نصـف فرسـخ. وبـاشر عسـكر الإنجليـز بنقـل جنـود البحريـة الإنجليزيـة المعسـكرة خلـف القلعـة الثانيـة ومعهـم الجـمال والبغـال ومخـازن الأسـلحة ومسـتلزمات التخييـم إلى منتصـف الطريـق بـين القلعتـين، وبـدأوا الحركـة باتجـاه سـنكات، وعنـد وصولهـم إلى الحفـر العميقـة ظهـر عسـاكر عثـمان دِقنَـة مـن أطـراف القلعـة، كالنمـل والجـراد في كثرتهـم، فـدبّ الرعـب في قلـوب عسـاكر الإنجليـز، وسـارعوا بـضرب عثـمان بالمدافـع، غـير أنّ جنـد عثـمان دِقنَـة واصلـوا هجومهـم عـلى القلعـة وهـم مكـبّرون صائحـون بأصـوات شـحاذة للهمـم محفـزة عـلى القتـال والتقـدم، وتسـاندهم النسـوة مـن خلفهـم بزغاريـد غـير معهـودة، ومـا لبثـت المدفعيـة الإنجليزيـة أن تطلـق أربـع أو خمـس طلقـات، حتـى تفـرق كل مـن كان في القلعـة الأولى مـن الإنجليـز، مهرولـين مولـين الأدبـار إلى القلعـة الثانيـة، فكانـت الآبـار والحفـر العميقـة في انتظارهـم وسـقط أربعمائـة خيـال إنجليـزي فيهـا، وانقـض عليهـم جنـد عثـمان كالمـوت الـزؤام يجهـزون عليهـم، و واصلـوا تقدمهـم وهجومهـم حتـى أخرجـوا المتحصنـين مـن عسـاكر الإنجليـز في القلعـة الثانيـة، و اضطرّوهـا للفـرار إلى أن وصلـت لمقـر القـوات البحريـة الإنجليزيـة في السـاحل، فتأهبـت القـوات البحريـة الإنجليزيـة واسـتعدت لـضرب عسـاكر عثـمان بالمدافـع المحمولـة عـلى السـفن. وسـارع عثـمان دِقنَـة بإصـدار أوامـره بالانسـحاب، وفي طريـق انسـحابه اسـتولى عـلى أمـوال الإنجليـز ومتاعهـم التـي تركوهـا، وكان مـن نتائـج هـذه المعركـة استسـلام أكـثر مـن (3400) جنـدي إنجليـزي، وجـرح مـا يقـارب الـ (1300) منهـم، وكان «بيكـر باشـا»، سـابق الذكـر، مـن ضمنهـم. وصلـت برقيـة تليغرافيـه تأمـر بعـودة عسـاكر الإنجليـز، فعـاد بعضهـم إلى مـصر، والبعـض الآخـر توجـه إلى قـبرص، وأشـاع الإنجليـز أنّ سـبب عودتهـم هـو شـدة الحـر، وأشـيع كذلـك أنّ عسـكر الإنجليـز سـيقصد السـودان بعـد خمسـة أشـهر، وأن أصحـاب المناصـب المصريـين المسـجونين ناحيـة

سواكن، الذين تم ابعادهم بقرار من المجلس العسكري سابق الذكر، قد فرّوا جميعا ولجأوا إلى عثمان دِقنَة وقام الأخير بإرسالهم إلى محمد أحمد وكلفهم بتدريب جنده. وعمد عثمان دِقنَة إلى قطع مصادر المياه عن القبائل التي انضمت إلى الإنجليز، وأوشكت على الهلاك. وقبل قدومي أرض السودان أشيع في الخامس عشر من رمضان سنة (1301هـ) ، بوصول أمر من محمد أحمد إلى عثمان دِقنَة يقضي بترحيل قبيلة بشاري وتوطينها في منطقة القصير الواقعة على ساحل البحر بين سواكن والسويس وتفصلها عن أسيوط وسط الصعيد ثمانية أيام.

وأما عن «غوردون باشا» والخرطوم:

أبقى الشيخ محمد خليفة الخرطوم تحت الحصار، واتجه برفقة (45000) من الجند نحو مدينة بربر، واستولوا في الطريق على قصبتين صغيرتين، وبعثوا برسالة لحسين باشا، خليفة حاكم بربر ويأتمر بأمره (800) من الجند، بأنّ عليه تسليم بربر.

في الوقت ذاته، أبرق حسين باشا تليغرافا يخبر مصر بما حدث، فعقدت الحكومة المصرية جلسة أوكلوا فيها الأمر للجنرال قنصل الإنجليز بتسيير حملة عسكرية إلى بربر. فبعث الجنرال برسالة تليغرافيه إلى لندن يخبرهم بما تم التوصل إليه، وجاءه الردّ في اليوم التالي بأن الحكومة الإنجليزية لا يمكنها إرسال قوات إلى بربر إلا بعد خمسة أشهر، وبعد يأس الحكومة المصرية من إرسال قوات إنجليزية أبرقت تليغرافا لحسين باشا تبلغه بوجوب ترك بربر وتسليمها طائعا راغبًا، إذا لم يكن لديك القوّة للدافع عنها، بيد أنّ غرور حسين باشا لم يسمح له بتسليم بربر، وردّ ردًا قاسيًا على رسالة الشيخ محمد خليفة، وفور استلام محمد خليفة ردّ حسين باشا، وجّه رسالة لعلماء مدينة بربر وكبارها قال فيها: « إنّي في اليوم الفلاني سأدخل مدينة بربر وعليكم تسليمها وإن امتنعتم، فإنكم ستسألون عن ذلك أمام الله»، غير أنّ علماء بربر وكبارها لم يستجيبوا لطلبه ورفضوا تسليم المدينة؛ خوفاً من بطش حسين باشا وسطوته. وصدق الشيخ محمد خليفة وعده، فشنّ هجوما في اليوم الموعود على مدينة بربر وعلى تحصيناتها الدفاعية، وخرج حسين باشا ومعه الـ (800) جندي لمقاومته، وفي نهاية المواجهة جرح حسين باشا و وقع أسيرا، وأُسر من أُسر من جنوده وقُتل من قُتل، بعدها أمر محمد خليفة بشن هجوم على المدينة، فدخلوها وقتلوا (4000) من أهلها وتم السيطرة والاستيلاء عليها، ومكث محمد خليفه فيها بضعة أيام حتى استقر النظام، وتوجه بعدها إلى مدينة أبي حمد فقام محافظ المدينة والأهالي بإخلائها، وولوا هاربين قبل أن يصلهم محمد خليفه، فدخلها بلا حرب أو قتال، ومكث فيها أياما معدودة لينطلق بعدها إلى مدينة دنقلا. وتبلغ مسافة الطريق المؤدية من أبي حمد إلى أسوان على الحدود المصرية ثلاثين فرسخا، غير أنّها طريقا رمليّة، أمّا الطريق الموصلة إلى دنقلة، الممتدة على ضفاف النيل، فهي تبعد عن أبي حمد نحو (130) ميلاً، والمسافة من أسوان حتى دنقلا نحو (170) ميلاً.

أبرق حاكم دنقلا تلغرافا إلى مصر يخبرهم في الأمر، ويطلب منهم آلاف البنادق. فتجيبه الحكومة المصرية بأن عليه تخلية دنقلا، إذ تناهى لمسامعهم بأن حاكم دنقلا كان على علاقة غير معلنة مع محمد أحمد وكان يأتمر سرًا بأوامره ونواهيه. وبالرغم من ذلك نجح محافظ دنقلا

بالحيلة والتزوير والتظاهر بالرجولة والإخلاص والولاء لحكومة مصر من الحصول على ألف بندقية و(500) حصان من مصر.

عملت عساكر محمد خليفة على قطع أسلاك التلغراف التي تربط وادي كرشكو [35] بحلفا ودنقلا، وحاصر عساكر محمد خليفة مشارف مدينة دنقلا، وكانوا كلما دخلوا ناحية يعطون الأمان لمن يستسلم طواعية من أهلها، ويقتلون كل مُتعنت يأبى أن يستسلم. وقبل مجيئي كان نصف جند محمد خليفة على مشارف مدينة دنقلا والنصف الآخر بين وادي حلفا ودنقلا.

كما مرّ سابقا، توقف في وادي حلفا ما يقارب الـ (6000) جندي من المصريين والإنجليز، وانقطعت الأخبار عن «غوردون باشا» والخرطوم لمدة ثلاثة أشهر. وبادرت الحكومة الإنجليزية عبر الصحف، غير مرة، بالإعلان عن مكافأة قدرها (24000) ليرة إنجليزية يستلمها من الحكومة لمن يأتي بـ «غوردون باشا» حيًا. وتنفيذاً لمبادرة حكومة لندن، جنّد القنصل الإنجليزي عشرة جواسيس ونشرهم في الخرطوم، ووعد بتقديم مبلغ (1000) ليرة لمن يقدم منهم معلومات حول «غوردون باشا»، وصرف لكل واحد منهم مبلغ مائتي ليرة مقدماً، وسيحصل من يحضر خبرا عن «غوردون باشا» على بقية المبلغ. وانطلق الجواسيس قبل شهرين من مجيئي، وإلى هذه الساعة لم تصل أخبارا عنهم، وأشيع أنّ ثمانية منهم قبض عليهم ووقعوا بأسر محمد خليفة. وانعقد مجلس في لندن ودُعيت إليه الدول الكبرى والدولة العثمانية، وكان هدف الإنجليز من هذا الاجتماع هو بحث الضرائب في مصر، إلّا أنّ دولة فرنسا ومعها الدولة العثمانية طالبتا ببحث كافة شؤون الحكومة المصرية.

بعد تدوين مُذكّراتي هذه، عزمتُ على العودة، وكل ما رأيته وسمعته بالتواتر أو بالمشاهدة والعيان معروض في هذه الوثيقة. وقبل عودتي من المهمة في العاشر من رمضان فشت الأخبار بأنّ محمد أحمد سيُسيّر محمل الحج المصري في الثامن والعشرين من شوال بنفسه، وهذا آخر علمي بأخبار السودان.

كيفية ختم مأمورية هذا العبد:

في السنة الماضية من شهر ربيع الأول تسلمت تكليفًا من الجنرال قنصل الدولة الإيرانية العليّة في مصر بتسلم رئاسة القنصلية في بندر المنيا وبني مزار، تركت محل مأموريتي السابقة قاصدا الصعيد. وتيسّر لي الاطلاع على أخبار السودان، بحكم أنّ الصعيد قريب من دنقلا وأبي حمد، فشرعتُ بإرسال التقارير الأسبوعية إلى الجنرال القنصل الإيراني في مصر، متضمنة أخبار ما أشاهد وأسمع عن السودان، وجميع الأشخاص الذين ذكرتهم في تقريري السابق رأيتهم بأم عيني ورسمتهم ليطلع عليهم أولياء الأمر في القاهرة، ورسمت كذلك خريطة مرفقة للسودان ومدينة الصعيد الواقعة في أول الأراضي المصرية [36]، ولمواقع المعارك في السودان [37].

ملاحظات على التقرير:

إنّ السؤال الأهم الذي يُثار ابتداءً، ما السرّ وراء اهتمام السلطات الإيرانية بالثورة المهدية؟ وما دوافعها لإرسال جواسيسها لتحري أمر هذه الثورة، وإرسال تقارير يطلع عليها رأس الدولة السلطان «ناصر الدين شاه» القاجاري؟

لا شك أنّ تفسير هذا الأمر يرجع إلى مهدوية المهدي، إذ إنَّ إعلان محمد بن أحمد بأنّه المهدي المنتظر أثار اهتمام النظام الشيعي الحاكم في إيران، فالمهدوية ركن أساس من أركان العقيدة الشيعية الاثني عشرية، ولا يخفي كاتب التقرير في عنوان تقريره قوله بحق المهدي بأنّه مدعي المهدوية، وكرر ذلك مراراً في التقرير.ومن جانب آخر فإن للـ «شاه ناصر الدين» القاجاري مشاكله آنذاك مع الإنجليز الذين توسعوا جغرافياً على حساب ممتلكات الدولة القاجارية، مما أدى إلى نشوب الصراع بين الطرفين وإقدام «ناصر الدين شاه» على التوسع في أفغانستان، مما يدلل على أنَّ الثورة المهدية موجهة أساساً نحو الوجود الإنجليزي في مصر والسودان مما قد يُفسر لنا هذا الاهتمام. ويعكس التقرير الانتصارات السريعة والمتتالية التي أحرزتها جيوش المهدي، وتزايد عدد أنصاره، مما يعطي فكرة عن مدى سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية التي عانى منها السودان في ظل الحكم المصري، ومدى الضعف الذي وصلت إليه مصر آنذاك في ظل الهيمنة الإنجليزية والفرنسية على اقتصادها، والأزمة المالية الخانقة التي كانت تعاني منها، وكيف استغلت بريطانيا ثورة المهدي لتكون ذريعة لها لفصل السودان عن مصر، وتمهيداً لإطلاق يدها في السودان ومن ثم احتلالها، ويوضح التقرير كيف تعاونت بريطانيا مع المهدي بداية ومدّته بالأموال والأسلحة؛ رغبةً منها في احتواء الحركة وتوظيفها في خدمة مصالحها، وهو أمر لم ينجح؛ لأنّ المهدي رفض الاستجابة لاحقًا لكل المغريات المادية التي عرضها عليه «غوردون باشا». ومن الملاحظ أنّ السلطات المصرية لم تكن مقدرة منذُ البداية لخطورة الحركة، ولعل ضآلة حجم القوات التي كانت ترسلها، وضعف جاهزية تلك القوات، وغياب التنسيق فيما بينها خير شاهد على ذلك؛ علاوةً على أنَّ ثورة المهدي تزامنت مع حركة الضباط العُرابيين ضد التدخل البريطاني في شؤون مصر وزيادة النفوذ الأجنبي، ممّا أضعف الروح المعنوية لدى الجيش المصري؛ لأنَّ جزءاً من هذه القوات المرسلة لقتال المهدي، كان ينحاز إلى جانب المهدي لحظة وصولها إلى السودان، كما يبين لنا التقرير أنّ المهدي أفاد من خبرات الضباط المصريين الذين نفوا إلى السودان بسبب مشاركتهم في الحركة العُرابية، إذ أفاد المهدي من خبراتهم في تدريب قواته. والتقرير يعطي مؤشرات مهمة على مدى الانتشار السريع للثورة، وتزايد أعداد المنضمين تحت لوائها، مما يفسر لنا الانتصارات السريعة التي أحرزتها جيوش المهدي، فبدأت الثورة بحوالي (600-500) من الدراويش في غرب السودان، وتسارعت وتيرتها بانضمام أعداد كبيرة من أبناء القبائل في غرب السودان لها، وقدّر التقرير عدد القوات التي سيّرها المهدي تحت قيادة عثمان دِقنَة للتصدي للجيش الذي يقوده «هكس باشا» بثلاثين ألف جنديّ، وإثْرَ الهزيمة الساحقة التي لحقت بحملة «هكس»، أوعز المهدي لقائده عثمان دِقنَة بالتوجه إلى سواكن على رأس جيش قُدِّرَ قوامه بعشرين ألف جنديّ، ولنائبه محمد خليفة التعايشي بالتوجه إلى مدينة الخرطوم وبربر على رأس جيش كان قوامه خمس وأربعين ألف جندي، وكان عدد القوات التي قادها التعايشي للتصدي لحملة «غوردون باشا» تُقدر بستين ألف جندي. وعلى ضوء التقرير، فقد كان للأخطاء التي ارتكبتها بريطانيا أثرها في تعزيز انتصارات المهدي، فبريطانيا نظرت للثورة في بداية الأمر على أنها ثورة نفعية مدفوعة

بمصالح تجار الرقيق الذين تضررت تجارتهم بسبب منع بريطانيا لتجارة الرقيق، كما أنّ إرسال قائد مسيحي ليقود حملة للقضاء على ثورة إسلامية سببٌ له أهميته في تأجيج الشعور الديني لدى الأهالي والتفافهم حول المهدي، ومن الأسباب ،أيضاً، إرسالها جيشاً من المرتزقة إثر هزيمة حملة «هكس» ومقتله، مؤلفاً من شتات من الأتراك والإيرانيين والكرد والأوروبيين، وهي أسباب كان لها دورٌ في تفسير نجاحات المهدي العسكرية. ويحاول الكاتب في تقريره التقليل من شأن الثورة ويعزو دافعها الرئيسي إلى تضرر مصالح تجار الرقيق بسبب حظر بريطانيا لهذه التجارة، وأنّ المهدي حاول أن يكسب تجار الرقيق إلى جانبه بالسماح لهم بتجارة الرقيق، وفي مقدمة هؤلاء الشيخ عثمان دِقنَة الذي عدَّهُ التقرير من أكابر زعماء القبائل ومن تجار الرقيق البارزين، والذي انضم إلى الثورة إلى جانب المهدي ومعه حوالي خمسة عشر ألف مقاتل وحقق انتصارات عظيمة على الجيش الأنجلو-مصري؛ ليضمن حريّة تجارة الرقيق. والمعطيات التي يزودنا بها التقرير عن تنظيم أنصار المهدي قليلة، ولا تكفي لتكوين صورة متكاملة، فقد كان حول المهدي مجلس للمشورة يتناقش معهم في الأمور المستجدة، ويصور التقرير أنصار المهدي بأنهم يحملون طعامهم المكوّن من العرعر الحار الذي يشبه العدس المحدب الطرفين، ويضعون طعامهم هذا في كيس معقود على خصورهم، ويطلون أجسامهم بالزيت مرتين يومياً. ولعلّ الصورة الأكثر جذباً للانتباه في هذا التقرير هي صورة المرأة السودانية التي تُرافق الجيوش، وتُثير حماس الرجال وحميتهم للقتال بالزغاريد. وتُشارك المرأة في الحرب إلى جانب الرجل، ويحملنَّ معهن نوعين من الأسلحة، وإبريق ماء، فإن كسرت أسلحة أزواجهن كان المدد حاضراً بما بين أيديهن، وإن عطشوا كان ماءُ الإبريق معيناً ينهلون منه، وبالزغاريد يتشجع المحاربون، ويدب فيهم الحماس للقتال.

مرفق رقم(1)

مرفق رقم(2)

۱۸۶۲م. دریاچه آلبرت (Lake Albart) را کشف کرد و به نام پرنس آلبرت انگلیسی نام‌گذاری کرد. از

مرفق رقم(3)

مرفق رقم(4)

مرفق رقم(5)

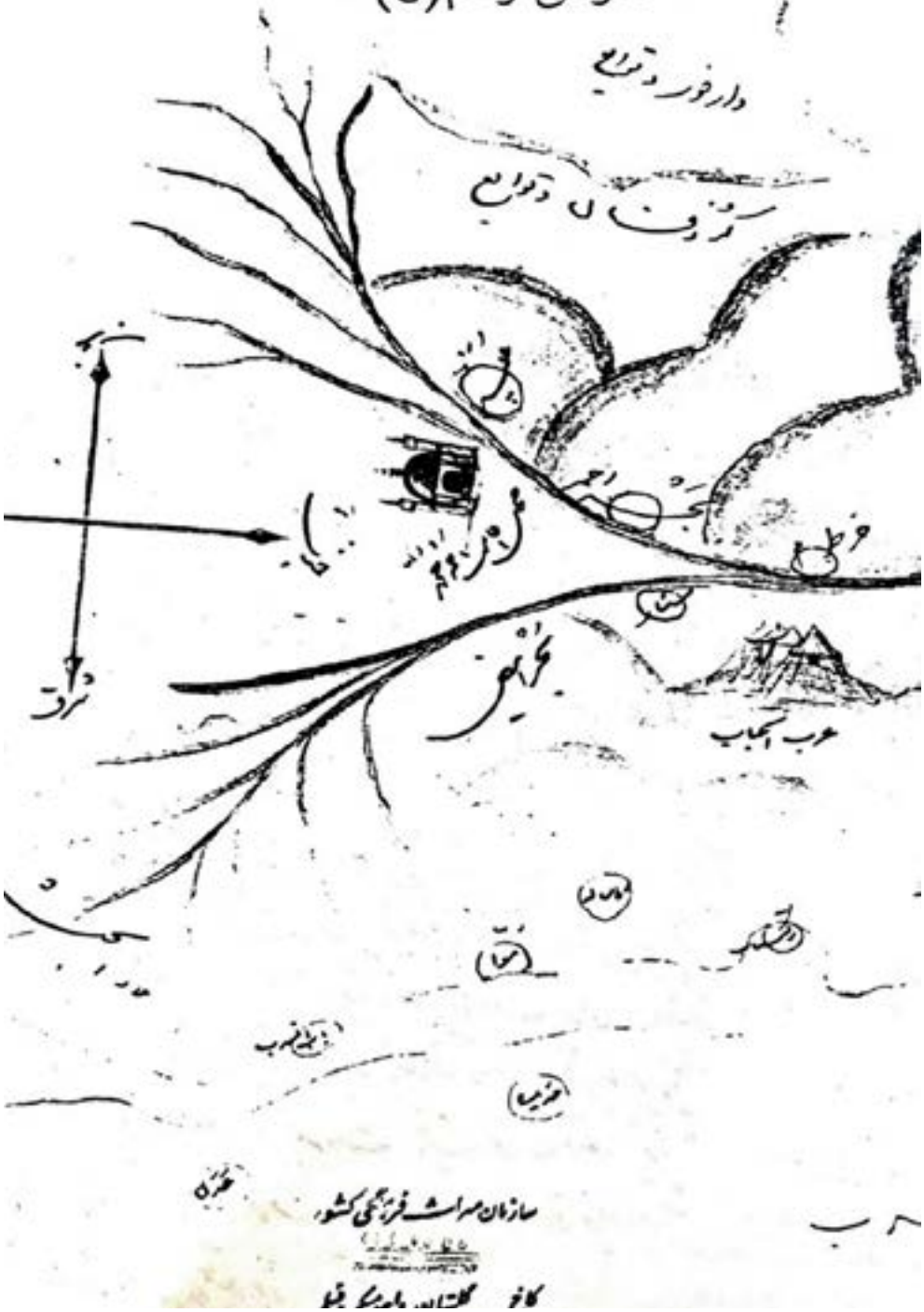

مرفق رقم(6)

الهوامش:

(1) سفرنامه هاى خطى فارسى، تصحيح هارون وهومن، نشر اختران، تهران، 1388هـ.ش، ج4، ص292.

(2) أدرج هذا الكتاب ضمن كتاب مخطوطات الرحلات الفارسية، تحقيق هارون وهومن، المجلد رقم 4، الصفحات 399-289.

(3) سفرنامه هاى خطى فارسى، تصحيح هارون وهومن، نشر اختران، تهران، 1388هـ.ش، ج4، ص293.

(4) سفرنامه هاى خطى فارسى، المصدر السابق، ج4، ص342.

(5) المصدر السابق، ج4، ص294.

(6) سفرنامه هاى خطى فارسى، تصحيح هارون وهومن، مصدر سابق ، ج4، ص294.

(7) المصدر السابق، ج4، ص 294.

(8) هو أعلى منصب تحت السلطان مع السلطة المطلقة له، ويعادله في العصر الحديث منصب رئيس الوزراء أو الوزير الأول.

(9) يقصد الشيخ محمد الخير استاذ المهدي في بربر ، المرفق رقم (1).

(10) مدينة سودانية تتبع لولاية نهر النيل بشمال السودان على ضفة نهر النيل الشرقية، وهي مدينة تاريخية.

(11) جعفر باشا مظهر من أهم من حكم السودان في العهد التركي، وعين حاكما عاما على السودان بين عامي 1865و1871م.

(12) ناب الفيل الذي شاهدته بأم عيني، طوله ثلاثة أمتار وقطره ستون سنتيمتر (حاشية المؤلف).

(13) مدينة في اريتريا تقع على ساحل البحر الأحمر وكانت من ضمن الأراضي السودانية في القرن التاسع عشر.

(14) مدينة سودانية ساحلية تقع على البحر الأحمر.

(15) المقصود النيل الأزرق، والغريب بأن هذه التسمية استخدمها الرحالة البريطاني روبرت تويغر وهو معاصر، فعندما يفيض النيل الأزرق تماماً ويدخل النيل الأبيض حاملاً معه طميه ورواسبه، يتحول اللون لبضعة أيام إلى أحمر قان.

(16) الزبير باشا رحمة لم يعين قط حكما على الخرطوم بكل كان حاكما على بحر الغزال في جنوب السودان ، وتمكن من ضم دارفور إلى أملاك الخديوية المصرية.

(17) هذه المعلومة غير صحيحة فالزبير باشا ذهب إلى مصر في عهد الحكمدار إسماعيل باشا أيوب ولم يدخل في أي مواجهه مع قوات الحكومة،

(18) هذه الحادثة لم نجد لها أي تأكيد في المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ السودان والثورة المهدية.

(19) نجح غردون باشا في القضاء على سليمان بن الزبير باشا بواسطة جسي الايطالي لكنه لم يعقد أي اتفاق مع المهدي.

(20) أعداد اتباع المهدي الذين التفوا حوله اكبر بكثير من الارقام التي اشار إليها المخطوط ففي منطقة قدير لوحدها أي قبل تحرير الابيض تخطت أعداد قوات المهدي 8000 مقاتل.

(21) يقصد منطقة قدير التي تقع في جبال النوبة بإقليم كردفان وهي المنطقة التي احتمى بها المهدي بعد انتصاره على قوات الحكومة في معركة الجزية أبا 1881م..

(22) الامير عثمان دقنة لم يكن زعيما لقبيلته

(23) هذا العدد مبلغ فيه لان عثمان دقنة حضر من سواكن في شرق إلى إقليم كردفان في غرب السودان والحكومة كانت تناصب لمهدي العدي كيف يمكن لهذا العدد الكبير من القوات الوصول غلى كردفان دون أن يدخل في مواجهة الحكومة.

(24) يقصد كردفان

(25) هذه المعلومة غير صحيحة

(26) الملحق رقم (2).

(27) فالنتاين بيكر، الشقيق الأصغر لصمويل بيكر الرحالة والضابط البريطاني، دخل الخدمة في الجيش العثماني في الحرب مع روسيا، قاد الجيش البريطاني والمصري في معركة التيب قرب طوكر في شرق السودان.

(28) يقصد سلاطين باشا حكم دافور وهو ضابط نمساوي من أصل يهودي التحق بخدمة الحكومة الخديوية في مصر واصبح حاكماً على دارفور في عهد غردون باشا تم القبض عليه بواسطة قوات المهدية وأصبح أسيراً لديها حتى تمكن من الهرب في العام 1895م، وعاد مرة أخرى إلى السودان وتقلد منصب المفتش العام حتى العام 1914م حيث قدم استقالته نتيجة لدخول النمسا للحرب ضد بريطانيا.

(29) هذه المعلومة ترد لأول مرة وقد اشرنا سابقا إلى عدم وجود اتفاق بين غردون المهدي بحسب ما توفر لدينا من معلومات.

(30) هذه المعلومة غير صحيحة

(31) اتخذت حملة هكس طريقا واحدا نحو المهدي على الرغم من الخلاف الواضح بين قادة الحملة هكس باشا وعلاء الدين باشا

(32) لم يتم العثور على الاسم من بين قادة الثورة المهدية.

(33) الملحق رقم (3).

(34) المرفق رقم (4).

(35) يقصد مدينة كرسكو وهي مدينة صغيرة تقع جوار بحيرة ناصر جنوب مصر.

(36) المرفق رقم (5).

(37) المرفق رقم (6).